

اللغز العربى بين اللغز السامى

مؤلفه: د. أحمد عبد الرزاق السامى

وشاعت التسمية منذ ذلك الحين ، وخاصة باستعمال المستشرق الألماني ايش هورن Eichhorn وادخاله اياها في مؤلفاته وبحوثه، واستعملها غيره من العلماء الألمان والانجليز والفرنسيين حتى صارت مصطلح علم عندهم ، ذا مدلول معين مفهوم ، ثم وجد هذا المصطلح سبيله الى الأمم الآسيوية والأفريقية والقراية بين اللغات السامية واضحة بينة ، وهي أوضح وأمتن وأوثق من الروابط التي تربط بين فروع طائفة اللغات المسماة باللغات « الهندو أوروبية » Indoeurpaichen sprachen « أو الهندوجرمانية » Indogermanischen sprachen على حد تعبير بعض العلماء وليس الاختلاف بين اللغات السامية القديمة ، يزيد على الاختلاف الكائن بين اللغات الجرمانية .

ولقد أدرك مستشرقوا القرن السابع عشر من أمثال : هوتنجر Hottinger (1620-1667م) وبخارت Bochart والبرت سولتنس Albert Schultens (1680-1686) ولود

ولف Ludolf وكاسل Edmcastell (1606-1685م) بسهولة الوشائج التي تربط بروابط متينة ما بين تلك اللغات وأشاروا اليها ، ونوهوا بصلة القربى التي تجمع شملها ، بل لقد سبقهم الى ذلك علماء عاشوا قبلهم بمئات السنين ، هداهم ذكاؤهم وعلمهم الى اكتشاف تلك الوشائج ، والى التنويه بها .

فقد تحدث عالم يهودي اسمه : يهودا بن قريش Jehuda ben koreish وهو من عاشوا في

اللغة التي نزل بها القرآن الكريم ، وهي التي يقال لها العربية الفصحى ، وكذلك سائر لهجات العرب ، هي فروع من مجموعة لغات ، عرفت عند المستشرقين باللغات السامية ، وقد أولع بعض المستشرقين بدرس هذه اللغات ، فالفوا فيها كتباً وإبحاثاً ، وانشأوا مجلات عدة تفرقت لها ، وما زالوا يسمون في توسيمها وتنظيمها وتبويبها ، وقد عرفت دراساتهم هذه ، عندهم بالساميات Semitistik وهي تتناول بالدرس ، كل اللغات التي يحشرها علماء الساميات في مجموعة اللغات السامية ، تتناولها بغض النظر عن وجود اللغة أو وجود اللغة أو عدم وجودها في هذا العصر .

فالبحت علم ، والعلوم تبتغي المعرفة ، دون تقييد بزمان أو بمكان ، وينفق علماء الساميات مجهوداً كبيراً في المقارنة بين اللغات السامية ، وفي معرفة مميزات كل لغة ، وما بينها وما بين اللغات الأخرى من فروق أو تطابق أو تشابه .

وترجع تسمية السامية الى عالم ألماني اسمه شلوتزر Schlotzer فهو أول من استعمل السامية في بحوثه في تاريخ الروم القديم ، ويعود فضل ايجاده الى شجرة انساب الأمم الواردة في التوراة ، والتي ترجع انساب البشر الى أبناء نوح الثلاثة : سام وحام ويافث « سفر التكوين - الأصحاح العاشر » .

فاطلق العالم شلوتزر لفظ السامية على جملة شعوب ، رجعت التوراة نسبها الى سام بن نوح ،

أوائل القرن العاشر من القرابة التي تجمع بين اللغات السامية ، ومن الخصائص اللغوية المشتركة بين تلك الألسن .

كما أبدى هذا العالم اليهودي ملاحظات قيمة من الأسس اللغوية التي تجمع شمل تلك اللغات .

ولقد جاء علماء السامية آراء بنيت على اعتبارات دينية ونفسية ، في قدم لفات أبناء سام ، فتمصّبوا للفتهم وحملهم تمصّبهم هذا وتقديسهم للفتهم ، على تفضيل لفتهم هذه على سائر لغات أبناء آدم .

وللمستشرقين آراء في أقرب اللغات السامية إلى الأصل ، فذهب بعضهم إلى أن العبرانية هي أكثر تلك اللغات شبيهاً بالسامية الأولى ، وهي لذلك أقرب بنات سام إليها .

وذهب آخرون إلى تقديم لغة بني « أرم » على غيرها ، جاهليها البنت الأولى التي اجتمعت فيها الخصائص السامية الأصلية ، أكثر من اجتماعها في أمة لغة أخرى ، ولهذا استحقت في رأيهم التكريم والتقدير .

وذهب آخرون إلى تقديم العربية على سائر اللغات الأخرى لمحافظة أكثر من بقية اللغات السامية على الخصائص السامية الأولى وعدم تنصلها منها وتركها لها كالذي نراه من استعمالها للمقاطع القصيرة الصامتة ، ومن كثرة تمدد قواعدنا التي زالت بقواعد بقية اللغات ، غير أن هذه الامتيازات والحصانات التي تتمتع بها هذه اللغة يقابلها من جهة أخرى ، مميزات في العربية ، لا نجدتها في اللهجات السامية الباقية ، مما يثبت على الظن أنها طرأت عليها فيما بعد ، وأن اللغة العربية قد مرت بأطوار تطورت فيها قصيراً .

فما من قاعدة من قواعد اللغات السامية ثابت نموها ، ونضجت في تطورها كما نضجت في اللغة العربية ، بعد ذلك التقدم المتطاوّل من أقدم العصور . ففي اللغات السامية أعراب ولكنه قاصر غير مطرد ولا متناسق في مواضعه ، ولم يبلغ قط مبلغ القانون الذي نعرف فيه حدود الأطراد وحدود الاستثناء وفي اللغات السامية اشتقاق ، ولكن قوالب المشتقات فيها لم تتميز بأوزانها ومعانيها ، كما تميزت مع تطور اللغة العربية .

وفي اللغات السامية حروف لم تعرف في غيرها من العائلات اللغوية ، ولكن لغة من اللغات -

سامية كانت أو آرية أو طورانية - لم تنحدر فيها المخارج بحروفها ولا الحروف بمخارجها كما انحدرت في لغة الضاد ، فليس في لغة الضاد حرف ملتبس بين مخرجين ، ولا مخرج ملتبس بين حرفين .

وفي اللغات السامية نحو وصرف ولكنهما واقفان - فوق المنبت - جدورا كالخشب الذي لا يقبل النمو بعدما وصل إليه ، وما من جلد من جلد نوحنا أو صرفنا لم يتزعزع ولم يحتفظ بقوة الحياة فيه .

ويقسم علماء السامية اللغات السامية إلى قسمين : لغة سامية شمالية ولغات سامية جنوبية ، ويقسم العلماء اللغات السامية الشمالية إلى مجموعتين : مجموعة شرقية ، ومجموعة غربية ، ويقصدون بالمجموعة الشرقية : اللغات السامية المتركة في العراق ، ويقصدون بالمجموعة الغربية : اللغات السامية المتركة في بلاد الشام ، ولا يقوم هذا التقسيم على أسس لغوية ، وإنما هو تقسيم جغرافي محض .

وتتألف مجموعة اللغات السامية الشرقية من اللغات : البابلية والآشورية والآكدية ، أما المجموعة الغربية فتتكون من الكنعانية والأخلافية والفينيقية والبنوية والآرامية والعبرانية والسريانية والنبطية والموابية والآشورية والآشورية ، ومن لهجات أخرى محلية .

أما المجموعة الجنوبية فتتألف من اللهجات العربية : المينية والسبالية والقثانية والحميرية والحشبية (الحميرية) ومن لهجات أخرى محلية .

وأما المجموعة الشمالية فهي :

أ - العربية ما قبل الحجازية أو ما قبل القرآنية ، ومنها اللهجات ، اللحيانية والشمودية والصفوية .

ب : والعربية الحجازية أو القرآنية ومنها تفرمت جميع اللهجات المحكية في البلدان العربية وغيرها .

ولقد توصل علماء اللغات السامية ، بعد البحث والدراسة والتنقيب إلى خصائص اللغات السامية ووجدوا أنها :

1 - تعتمد على الحروف الصامتة Konsonant

أكثر من اعتمادها على الأصوات Vokale فنرى أن أغلب كلماتها تتألف من اجتماع ثلاثة أحرف صامتة ،

أما الأصوات فلا نجد لها حروفا تمثلها في اللغات السامية ، وهي بذلك على عكس اللغات الآرية التي اهتمت بالأصوات ، فدونتها مع الحروف الصامتة .

وقد اضطرت اللغات السامية نتيجة لذلك ، إلى الاستزادة من الحروف فزادت في مداها عن العدد المألوف في اللغات الآرية ، وأوجدت لها حروفا للتفخيم والتضخيم والترقيق ، وإبراز الإنسان والضغط على الحلق .

2 - ويتولد فيها - اللغات السامية - من تغيير حركات الأحرف الثلاثة الصامتة وبديلتها : معان جديدة ، ولكن من أهم وأجبات الأصوات في اللغات السامية تغيير حركات الحروف لتولد معان جديدة ، فالأحرف الثلاثة الصامتة إذن : هي التي تكون مفهوم الكلمة وهيكلها ، ولكن مفاهيم هذه الأصول الثلاثة ، لا تبقى على حالها ، حتى تغيرت حركات هذه الحروف .

3 - ومن الممكن أحداث معان جديدة في اللغات السامية ، وذلك بإضافة زوائد تتألف من حركة أو أكثر ، إلى الأصول الثلاثة فيتبدل بذلك معنى الأصل .

4 - وليس في اللغات السامية ادغام للكلمات ، أي وصل كلمة بأخرى لتتكون من كلمتين ، كلمة واحدة يكون لها معنى مركب من معنى الكلمتين المستقلتين ، كما في اللغات الآرية ، وما نراه من عد كلمتين مضافتين كلمة واحدة ، تؤدي معنى واحدا ، فإن هذا النوع من التركيب بين الكلمتين ، شيء جديد في اللغات السامية ، لم يكن معروفا عند أجدادهم القدماء .

5 - وهذا هو سبب ظهور الأعراب في اللغة العربية ، ويذهب العلماء إلى أن الأعراب كان موجودا في جميع اللغات السامية ، ثم خف حتى زال من أكثر تلك اللغات ، ونرى له سرا يدل عليه في العبرانية ، في حانتي المفعول به ، وفي ضمير التبعية ، وفي السريانية والبابلية في ضمير التبعية ، فإن هاتين الحالتين ، تدلان على وجود الأعراب في أصولها القديمة .

ويرى العلماء أن الفعل قد تطور في اللغات السامية تطورا خطيرا استغرق قرونا طويلة ، وإن ما نعرفه من تقسيم الأفعال إلى ماضٍ ومضارعٍ وأمرٍ ،

لم يكن معروفا على هذا النحو عند قدماء الساميين . إذن مما سبق توضيحه تبين أن اللغة العربية من اللغات السامية - الآرامية والكنمانية والكلدانية والسريانية والآشورية والعبرانية وغيرها - التي نشأت فيما يسمى الآن منطقة الشرق الأوسط . وقد ظلت الآراء مضطربة في الأصل المشترك للغات السامية ، والملم على أي حال لم يعرف الكلمة الأخيرة .

ومما هو جدير بالذكر أن اللغة العربية ، آخر لغة انفصلت عن اللغة الأم « السامية » الأمر الذي مكنها أن تأخذ ما في السامية من مزايا ، وتتجنب إلى حد بعيد ، كثيرا من مزالق ، مما لم يحصل للسريانية والعبرانية اللتين سبقتا اللغة العربية في الانفصال .

وقد استفادت اللغة العربية من تطور السريانية والعبرانية ، وما امتازتا من تحوير وتجديد ، فجاءت بدايتها لا كبداية هاتين اللغتين بمعنى أن بداية العربية جاءت أقرب إلى التفسخ والاكتمال ، من شقيقتها ، فكانت بحق بداية جديدة بان تقود إلى نتيجة هي أكبر نضجا واستقرارا وسعة .

والمراكز التي تبلورت فيها اللغة العربية هي : اليمن والحجاز ، أما في اليمن فكانت العربية أكثر اتصالا بالأكدية والعيشية من أي لغة أخرى ، على أن الهجرات الجنوبية إلى الشمال والغرب جعلت عربية اليمن تؤثر إلى حد بعيد في هذه المناطق .

وأما في الحجاز فقد كان هناك تقارب بين العربية والعبرانية . وهكذا فإن هجرات القحطانيين واحتكاكهم بالمدنانيين ساعدت على تركيز لغة مشتركة .

وهجرات اليمنيين إلى الشام ، وعدم وجود حكومة عربية ، ورغبة العرب بوجه عام في الحفاظ على المقومات القبلية ، لم يكن من شأنه إلا أن يوسع دائرة اللغة العربية ، بما شملته من تعدد المصطلحات للمعنى الواحد ، إذ كان لكثير من القبائل لهجات خاصة ، دون أن يكون التفاهم مع ذلك صعبا بينها ، وإذا كان من الصعب الآن أن نعرف متى نشأت اللغة العربية إلا أننا لا نعدو الصواب إذا قلنا : إنه قد مر أكثر من قرن قبل ظهور الإسلام ، وقبل أن تصل إلى درجة الاتقان .

ولم يقتصر العرب على شبه الجزيرة العربية وحدها كموطن لسكناهم ومعيشتهم ، بل هاجر كثير منهم الى البلاد المجاورة لشبه الجزيرة العربية قبل الاسلام بقرون .

ولما كانت هذه البلاد نفسها موطننا لاناس بينهم وبين العرب صلة شديدة القوة ، كالانباط والاشوريين والكلدانيين ، فقد سهل على المهاجرين من شبه الجزيرة الاستقرار بهذه البلاد ، وكونوا في ظل الحكم الروماني والفارسي ، بعض الممالك التي اشتهر منها : مملكة الحيرة في القرن الخامس قبل الميلاد ، ومملكة هسان في القرن السادس قبل الميلاد .

فلم يكن العرب يعيشون منكسرين على انفسهم ، بل كانت لهم علاقات وطيدة ، بمدنية الفرس والروم . وهذا ينطبق ايضا على سكان الحجاز ، وعرب الشام والعراق .

ولقد كان لعرب الحجاز تجارة واسمة مع الفرس والرومان ، وبعبارة ادق مع العراق والشام . وهي تعتبر منذ زمن سحيق العاصمة الروحية للعرب . والتجار يحتاجون الى تعلم لغة البلاد ، التي لهم علاقة تجارية ، ومن ثم كان لابد ان تدخل الفاظ كثيرة الى اللغة العربية ، من الفارسية والرومانية ، وهذه الالفاظ التي تطمعت بها العربية معظمها من الالفاظ الحضارية . ولغة العرب ظلت ترتبط بالجاهلية الى حد ما بالمحسوسات التي يقع عليها بصر العربي ، ولكن الذي يثير انتباه الباحث ، هو ان كل ما يرتبط بظواهر الطبيعة في حدود شبه الجزيرة العربية يمثل ثروة لغوية لا تقدر . واذا كانت قريش زعيمة قبائل العرب طالما كانت تتولى امور الكعبة وتسيطر على تجارة الحجاز ، فان لهجتها استطاعت في النهاية ان تصهر كل اللهجات العربية لتخلق منها لغة مشتركة . ونقول لهجة قريش ، ولا نقول لغة لانها لم تكن ذات علم مكتوب .

قال جماعة من الباحثين : ان قريشا افصح العرب ، وبلسانها القرمان الكريم ، وذلك لانها كانت - قريش - تختار افضل لغات العرب . وهذا الرأي منسوب الى قتادة المتولي سنة 117 هـ

ويقول الفراه المتولي سنة 207 هـ : « كانت العرب تحضر المواسم في كل عام ، وتحج البيت في الجاهلية ، وقريش تسمع لغات العرب ، فخلت لغتهم من مستبشع اللغات ، ومستبشع الالفاظ » .

وقال احمد بن فارس المتولي سنة 395 هـ نقلا عن اسماعيل بن ابي عبيدة : « اجمع علماؤنا بكلام الرواة لاشعارهم ، والعلماء بلغاتهم وايامهم ومجالسهم ان قريشا افصح العرب السنة ، واصفاهم لغة ، وذلك ان الله جل ثناؤه اختارهم من جميع العرب واختار منهم نبي الرحمة محمدا ، فجعل قطان حرمه ، وجيران بيته الحرام وولائه ، فكانت وفود العرب من حجاجها وفيهم يفتدون الى مكة للحج ، ويتحاكمون الى قريش في امورهم ، وكانت قريش مع نصاحتها ، وحسن لغاتها ورقة لسانها ، اذا اتهم الوفود من العرب ، تخبروا من كلامهم واشعارهم ، احسن لغاتهم واصفى كلامهم فاجتمع ما تخبروا من تلك اللغات الى نحاتهم وسلاتهم التي طبعوا عليها ، فصاروا بذلك افصح العرب .

وجاء في مقدمة ابن خلدون : « ان لغة قريش كانت افصح اللغات العربية ، واصرحها لبعدهم عن بلاد العجم من جميع جهاتهم ثم من اكتشفهم من ثقيف وهذيل وخزاعة وبني كنانة ولطفان وبني اسد وبني تميم » .

واما من بعد عنهم من ربيعة ولخم وجذام وفسان وايباد وقضاة وعرب اليمن المجاورين لامم الفرس والروم والحبشة ، فلم تكن لغتهم تامة الملكة بمخالطة الاماجم وعلى نسبة بعدهم من قريش ، كان الاحتجاج بلغاتهم في الصحة والفساد ، عند اهل الصناعة العربية .

وقد توسع العلماء المحدثون في اثر ما كان « لمكاظ » في تثقيف قريش ، وفي اثر من كان يحضر فيه من الشعراء والادباء بلغة قريش .

ومن هؤلاء سليمان البستاني ، ونظريه ان القرمان الكريم جاء بلغة قريش ، وجدت لها انصارا من العلماء المعاصرين مثل الدكتور طه حسين ومصطفى صادق الرافعي وعدد كبير من المستشرقين ، فلهجة قريش على رأي هذا الفريق من العلماء هي افصح اللهجات .

وهناك روايات تصف لهجات اخرى بالفصاحة . قال ابو عمرو بن العلاء : الفصح العرب عليها هوازن ، وسفلى تميم .

ووصفت بالفصاحة هذيل وثقيف وجرهم ونصر نعين .

وجاء في لسان العرب لابن منظور : « ان بعض العلماء سئل اي العرب الفصح ؟ فقال : نصر قبيس . »

ووصفت بالفصاحة قيس وتميم واسد ، والمجز من هوازن الذين يقال لهم عليا هوازن . وهم خمس قبائل منها : سعد بن بكر ، وجشم بن بكر ، ونصر بن معاوية وثقيف .

وقال ابو عبيدة : « واحسب افصح هؤلاء بني سعد بن بكر ، وذلك لقول الرسول انا افصح العرب بيد ابي من قريش ، واني نشأت في بني سعد بن بكر ، وكان مسترضعا فيهم ، وهم الذين يقول فيهم عمرو ابن العلاء افصح العرب عليا هوازن وسفلى تميم . »

وقد عدت هوازن وتميم من افصح القبائل في الاسلام ، ولذلك رحل اليها علماء اللغة للاخذ منها : مثل الخليل والكسائي والازهري وامثالهم من العلماء .

وجاء في كتاب الزهر : « ان ابا نصر الفارابي قال في مقدمة كتابه المسمى : «بالالفاظ والحروف» كانت قريش اجود العرب انتقاء للفصح من الالفاظ ، واسهلها على اللسان هند النطق ، واحسنها مسموها ، وايضا ابانة عما في النفس ، والذين نقلوا اللغة العربية ، وبهم اقتدى ، وهنهم اخذ اللسان العربي من بين القبائل هم : قيس وتميم واسد . فان هؤلاء هم الذين عنهم اكثر ما اخذ ومعظمه ، وعليهم اتكل في الغريب ، وفي الابرار والتصريف ، ثم هذيل وبعض كنانة ، وبعض الطائيين ، ولم يؤخذ من غيرهم من سائر قبائلهم . »

قال الدكتور جواد علي عضو المجمع العلمي العراقي : « والقائلون بان العربية الفصحى هي لسان قريش ، متأثرون من كون الرسول من قريش ، وبان القرءان الكريم نزل بين قريش . فهو اذن بلغة قريش ، وبما اورده علماء اللغة من انتقاء قريش لادق الالفاظ وامدبها ، وكتخصص سوق « مكافئ » . »

اما ان الرسول من قريش فهذا امر مفروغ منه ، واما ان القرءان بلسان قريش فمسألة فيها نظر ، ونضبة تحتاج الى بحث .

فلو كان القرءان بلسان قريش ، لم سال رجال منهم في تفسير كلمات من كلام الله ؟

ولم لجأ المفسرون الى الاستشهاد بشعر غير قريش وبلغات قبائل اخرى لتفسير كلمة من كلام الله ؟ ولم ندر الشعر في قريش ؟

وقد ورد ان قريشا كانت اقل العرب شعرا في الجاهلية ، فاضطررها ذلك الى ان تكون اكثر العرب اتحالا للشعر في الاسلام .

وورد ايضا : ان العرب كانت تقر لقريش بالتقدم في كل شيء ، الا في الشعر فانها كانت لا تقر لها به حتى كان عمر بن ابي ربيعة فاقرت له الشعراء بالشعر ايضا ولم تنازعها .

ولم استشهد العلماء في اللغة بأبيات من الشعر وبكلام الابرار ، بدلا من الاستشهاد بلغة قريش ؟ ثم من يثبت مقالة من قال : ان قريشا كانت

تخبر الكلام فتنتقي منه اعذبه واصفاه ، وليس لهم دليل جاهلي مكتوب ، ولا اثر حقيق يمكن الاعتماد عليه ؟ ثم ما قولنا في حديث طال بحث العلماء فيه وهو : « انزل القرءان على سبعة احرف » وقد قيل ان خمسة منها لعجز هوازن واثنين منها لقريش وخزاعة ، وهو حديث في امره نظر .

على كل حال ينسب الى عبد الله بن عباس ، وليست الرواية عنه من رواية من يجوز الاحتجاج بنقله ، وذلك ان الذي روى عنه - ان خمسة منها من لسان العجز من هوازن - الكلبي من ابي صالح ، وان الذي روى عنه ان اللسانين الاخرين لسان قريش وخزاعة - قتادة وقتادة لم يلقه ولم يسمع منه (كما في تفسير الطبري ج 1 ص 23) والعجز من هوازن سعد بن بكر ، وجشم ابن بكر ، ونصر بن معاوية ، وثقيف .

قيل نزل القرءان الكريم بلسان قريش ولسان خزاعة لان الدار واحدة .

وورد ايضا ان القرءان نزل بلسان قريش . وقد اجمل الطبري في تفسيره (ج 1 ص 25) رايه في لغة القرءان بقوله : ان القرءان كله عربي ، وانه نزل بالسن بعض العرب ، دون السن جميعها ، وان قراءة المسلمين اليوم ومصاحفهم التي بين اظهورهم ببعض الالسن التي نزل بها القرءان دون جميعها .

وذهب ابو عبيدة المتوفي سنة 223 هـ الى ان في القرءان لهجات : لهجة قريش ولهجة هذيل ولهجة

المبحرون في اللغات ، ولم يرد في كل الروايات ان قريشا كانت تمتلك هذه الاسباب ليجوز لنا القول بان لغتها كانت لغة الادب والشعر في جزيرة العرب قبل الاسلام . الى هنا وضع كلام الدكتور جواد علي عضو المجمع العلمي العراقي . واثني لادى ان لغة قريش لها من القومات ، ما جعلها تصهر في بوتقتها اللهجات الاخرى . وقد تفاعلت مع اللهجات الاخرى تفاعلا افاد العربية ومن الواضح ان المتكلمين بالعربية لم يكونوا طائفة واحدة ، رغم انتسابهم الى العرب ، ولكنهم كانوا قبائل متفرقة في انحاء الجزيرة العربية ، وقد اضطرت هذه القبائل الى الاتصال ببعضها لتبادل المنافع من تجارة وغيرها ، فاجتمعت في الاسواق ، واتصلت عند شن الغارات والحروب .

وهذه الاتصالات اوجدت سبيلا لتصارع اللهجات ، فباد الضعيف وانتشر القوي ، وما زالت اللهجات تتصارع حتى كتب للقرشية آخر الامر ، التغلب لاسباب هيات لها سبيل الرسوخ والنصر . ومن هذه السبل :

1 - النفوذ الديني :

فقد كان قريش مكانة دينية ممتازة لقيامهم بسدانة البيت الحرام الذي يقد اليه العرب من كل فج عميق ليشهدوا منافع لهم ويقدموا قرابينهم ، ويقدموا آلهتهم . لهذا كان القرشيون موضع تقديس العرب جميعا .

2 - النفوذ التجاري :

وقد كان للقرشيين سلطان اقتصادي كبير . فقد كان زمام التجارة بأيديهم فيجلبون البضائع من الشام صيفا ، ومن اليمن شتاء ، ويوزعونها على القبائل العربية ، فأصبحوا قبلة انظار العرب جميعا ، وقد حدثنا كتاب الله بذلك فقال : « لا يلاف قريش ابلانهم رحلة الشتاء والصيف » .

3 - النفوذ السياسي :

وقد نهب قريش مكانة سامية بفضل ما اوتوا به من نفوذ ديني واقتصادي وما حبا به من حضارة ، فاصبح لهم نفوذ عند العرب جميعا ويرشد الى هذا ما قاله ابو بكر الصديق في رده على الانصار الذين طعموا في الخلافة بعد وفاة النبي - عليه السلام - « لا تدن العرب الا لهذا الحي من قريش فلا تنفسوا على اخوانكم » .

هوازن ولهجة يمن ، ولبعضها نصيب كبير فيه . « كما في الاتقان للسيوطي » .

وذكر ابو بكر الواسطي : « ان في القران خمسين لهجة ، ثمانى لغات دخلت فيه « الاتقان للسيوطي » وذكر ابن النقيب ان القران الكريم تضمن مفردات من جميع لهجات القبائل ، وكذلك مفردات من الافريقية والفارسية والحبشية « الاتقان للسيوطي » وجاء ايضا ان الخليفة عثمان بن عفان كان يفضل ان يكون الملمي من هذيل ، والكاتب من ثقيف ، وورد انه قال : « اجملوا الملمي من هذيل ، والكاتب من ثقيف ، وان الخليفة عمر بن الخطاب قال : لا يملين في مصاحفنا الا غلمان قريش وثقيف » .

وقال الصاحبى : قال ابو عبيدة : « واحسب انصح هؤلاء بني سعد بن بكر » .

ويتضح للباحث من هذه الاقوال ان الفصاحة والعربية لم تكن خاصة في قريش وان القران لم يكن يعربيتها حسب .

قال الدكتور جواد علي : « ان لسيادة لهجة ما من بين لهجات عديدة شروطا منها : نبوغ شاعر او شعراء او كاتب او كتاب في تلك اللهجة ، غاية في البلاغة والفصاحة والصناعة ، فتنتشر آثارهم بين الناس ، ويحاكيهم غيرهم في ذلك ، ويكون ذلك سببا في انتشار اللهجة وتفوقها ، كما حدث عند اليونان في الشعر القصصي الذي بلغ كماله في الياذة (هوميروس) المنظومة بلغة اليونانيين في القرن التاسع قبل الميلاد ، وفي الشعر الفنائى المنظوم بلغة الايوليين احدى اللهجات اليونانية ، وذلك لسبق الايوليين غيرهم بهذا الفن ، فلم يقل بمدى سائر اليونان هذا النوع من القريض الا بهذه اللهجة ، وكالذي حدث ايضا في الشعر الخورسي المنظوم باللهجة الدورية عند عموم اليونان .

ومن اسباب تفوق لهجة على اخرى ، سبقها في مضمار التأليف او اتخاذها لغة رسمية في دوائر حكومة قوية لها كيان وسلطان ، او جعلها لغة دينية او تأليف الكتب الدينية بها ، كما حدث في الالمانية ، حيث صارت اللهجة التي ترجم بها (مارتن لوتر) الكتاب المقدس ، في القرن السادس عشر ، لغة الادب نظرا لمحاكاة الشعراء والادباء اياه في استعمالها للتعبير عن آرائهم ومنها ، السيادة السياسية والاقتصادية وامثال ذلك من عوامل بسطها العلماء

4 - النفوذ اللغوي : ان القرشيين لم يقفوا حجر عثرة في سبيل تقدم لغتهم بل عملوا على نموها ، فاضافوا اليها ، ما هي في ميسس الحاجة اليه ، وما راوه اخف على اسماهم ، وايسر على السنتهم .

فهذه العوامل قد هيات للقرشية سبيل الفوز والنجاح ومكنتها من ان تصبح لغة العرب جميعا ، وقد اكتسبت من هذا الصراع امورا عظيمة ، هيات لها سبيل التقدم والرقي .

فانت ترى ان قريشا ، افردت بملو الكلمة ، وسمة الزعامة ، وسعة الجاه ، ووفرة السلطان وتمام النفوذ الروحي والاقتصادي بين العرب ، لما تواتى لهم من ثقافة وخبرة وحكمة .

والذي ورث من لغة الحميريين ليس كثير التمييز من لغة قريش ، سواء في التصريف ام في الالعاب ام في الاسلوب ، بل ان اكثره ظاهر في اختلاف بعض الالفاظ عن بعض في الدلالة على المعاني المتحدة ، فلفظ « انطى » في لهجة الحميريين معناه « اعطى » عند القرشيين ، و « الكتح » عند الاولين هو « اللذب » عند الآخرين ، و « الشناتر » عند حمير هي : « الاصابع » عند قريش ، و « سامدون » في لغة حمير هي : « الغناء » في لهجة قريش ، الى غير ذلك مما تجد له نظيرا في لهجات مضر « كالسدة » فهي « الظلمة » عند تميم و « الضوء » في لغة قريش .

ولما كان الخلاف بين الحميرية والقرشية غير متشعب ، ذابت لغة الحميريين كسائر اللغات الاخرى في لغة قريش التي صارت ذات غلبة وسيادة على سائر اللغات وقد استفادت القرشية من صراحتها مع اللهجات العربية الاخرى ، امورا كثيرة اهمها :

1 - انها استفادت كثيرا من المفردات والاساليب ولاسيما التي كانت تنقصها لتنوع فنون القول ، وتمكنت من التعبير عن جميع الاعراض ، التي كانت تنقصها ، وغنيت بالمترادف والمشتراك والمتضاد ، وغيرها من الامور التي كانت كبيرة الاثر في نمو اللغة وسعتها .

2 - وانها صارت اللغة القومية للعرب جميعا ، لان اللغات او اللهجات اذا تصارعت وكتب لاحداها الفوز ، انجبه الجميع الى التكلم بها ولذلك صارت اللهجة القرشية لغة الشعراء في اشعارهم والخطباء

في خطبهم ، ويؤكد ذلك ان العرب على اختلاف قبائلهم ، ورد اليها شعرهم بلغة واحدة ، الا في القليل النادر ، وهو الذي كان عليه الاعتماد في تصرف البقية من لهجاتهم .

وانت ترى بعد هذا الالعاب ان احتكاك اللهجات العربية ادى في نهاية الامر الى ترمز اللهجة القرشية وصرها جميع اللهجات ، الا انه قد بقي لكل قبيل بعض الالفاظ التي كانوا يستعملونها في مخاطبتهم ، وفي النادر من اشعارهم والذي يرشدنا الى هذه البقية من اللهجات مصدران :

المصدر الاول :

القراءات التي رويت في القردان الكريم من امة القراء الموثوق بهم ، والذين نقلت اليها قراءاتهم من طرق ، لا يتسرب الشك اليها .

وقد روي عن ابي بن كعب ، قال : دخلت المسجد اصلي فدخل رجل فافتتح النحل فقرأ ، فخالفني في القراءة ، فلما انفتل من صلاته قلت : من اقراك ؟ قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ثم جاء رجل فقام يصلي ، فقرأ وافتتح فخالفني وخالف صاحبي ، فلما انفتل من صلاته ، قلت من اقراك ؟ قال رسول الله ، فدخل قلبي من الشك والتكذيب اشد مما كان في الجاهلية ، فاخذت بايديهما ، وانطلقت بهما الى النبي - صلى الله عليه وسلم - فقلت استقرئ هذين فاستقرأ احدهما ، وقال : احسنت ، فدخل قلبي من الشك والتكذيب اشد مما كنت في الجاهلية ، ثم استقرأ الآخر وقال : احسنت ، فدخل صدري من الشك والتكذيب اشد مما كنت في الجاهلية ، فضرب رسول الله صدري بيده ، وقال : اميدك بالله يا ابي من الشك ، ثم قال : ان جبريل - صلى الله عليه وسلم - اتاني فقال : ان ربك - عز وجل - يأمرك ان تقرأ القردان على حرف واحد ، فقلت : اللهم خفف من امتي ، ثم عاد ، فقال : ان ربك - عز وجل - يأمرك ان تقرأ القردان على حرفين ، فقلت : اللهم خفف من امتي ، ثم عاد ، وقال : ان ربك - عز وجل - يأمرك ان تقرأ القردان على سبعة احرف .

فهذا الحديث صريح في اجازة النبي - صلى الله عليه وسلم - الصلاة والسلام - القراءات التي هي مصدر لاختلاف اللهجات .

والمصدر الثاني : ما رواه الثقات في كتب النحو والادب واللفظة والتاريخ ، من آثار تلك اللهجات ،

لم تكن كبيرة ، وان اللهجة الفصحى مبنية على جميع هذه اللهجات .

ويعتقد العلامة « فويدي » : ان اللغة الفصحى هي مزيج من لهجات تكلم بها اهل نجد والناطق المجاورة لها ، ولكنها ليست لهجة معينة لقبيلة معينة .

ويقول « نلينو » : ان اللغة الفصحى وهي لغة الشعر الجاهلي ، هي لغة القبائل التي اشتهرت بالبراعة في نظم القصيد ، والتي تردد اليها النحاة وعلماء اللغة في الاسلام ، ليتعلموا من اهلها صحة النطق بالحروف او المعاني الغريبة والشواهد لقواعد النحو ، وهي قبائل « معد » التي جمع ملوك « كندة » كلمتها قبل منتصف القرن الخامس للميلاد .

ويرى ان اللهجة الفصحى تولدت من احدى اللهجات النجدية، وتهدبت في مملكة كندة وفي ايامها، فصارت اللغة الادبية السائدة بين العرب . وذكر « فيشر » ان العربية الفصحى هي لهجة معينة . ولكن فيشر لم يعين اسم هذه اللهجة .

اما « هارتمن » و« فولرس » فخلاصة رأيهما : ان العربية الفصحى هي لهجة اعراب نجد واليمامة ، غير ان الشعراء ادخلوا عليها تغييرات عديدة ، اما الاجزاء الباقية من الجزيرة ، فكانت تتكلم اللهجات اخرى .

ومن رأي « بروكلمن » و « ويتزشتاين » وآخرين : ان اللهجة العربية الفصحى لم يتكلم بها على الشكل الذي نعرفه . ولم يشرح « بروكلمن » علاقة هذه اللهجة ببقية اللهجات .

والعالم « لندبرج » يقول : « ان قواعد اللهجة العربية الفصحى ، من وضع الشعراء ، فمن شعرهم استخرجت القواعد ، ومن قصالدهم استنبطت . »

هذا مجمل آراء كوكبة من كواكب العلم والاستشراق والدراسات الواسعة ، ومع انها آراء تبدو مختلفة ، الا انها جميعها تعطي صورة صادقة لفصاحة القبائل العربية المنتشرة في طول الجزيرة العربية وعرضها .

وما يدعو الى الانتباه ان العلماء لم يتفقوا على اول لاهج بالعربية ، ولكن باحثي اللغات اختلفوا شيئا وطوائف ، حسب ما بدأ لهم من اساسها الحدى والتخمين .

وما يذكر استطرادا بهذا الصدد ، ان الخلاف بين اللهجات متعدد النواحي ، متشعب الجهات ، فتارة يكون الخلاف ناشئا عن اختلاف الحروف واخرى من تباين الحركات ، وثالثة من اختلاف حركات الاءراب والبناء وآونة يتعلق بهيئة المنطق ، وبالنظر الى ما وصلنا من لهجات العرب يمكننا ان نحصر مظاهر اختلاف اللهجات فيما يلي :

- 1 - الإبدال : ويشمل ابدال الحروف من الحروف والحركات من الحركات .
- 2 - التصحيح والاملا .
- 3 - الاختلاف في الاءراب .
- 4 - التردد بين الاءراب والبناء .
- 5 - الزيادة والنقصان .
- 6 - الفك والادغام .

7 - هيئة النطق وهي تشمل الامالة والترقيق والتفخيم والاختفاء والاظهار .

8 - تقديم بعض حروف الكلمة على بعض ، وهو القلب الكاني .

8 - دلالة اللفظ على معنيين ، وهو المشترك والمتضاد .

10 - دلالة عدة الفاظ على معنى واحد وهو المترادف .

وما سبق بيانه ، يتضح ان قريشا كانت تحتكر التجارة الخارجية في شبه الجزيرة العربية وكانت تقطن مكة ، وما لا يحتاج الى دليل ان مكة من الزمان القديم العاصمة الروحية للعرب ، افلا يكون هذا كافيا لان تتفوق لهجة قريش على غيرها من اللهجات آنذاك .

واذا كنا وصلنا الى هذا الحد من الكتابة عن اللهجات العربية ، وهرفنا آراء علماء العربية فيها ، فلا نرى مانعا من ذكر آراء كوكبة الاستشراق الذين اتوا بأرائهم لمروضة العلم في ذاته ، دون تعصب أو سطحية .

فالمستشرق « نولدكه » يرى : ان الفروق بين اللهجات في الاتسام الرئيسية من جزيرة العرب ، مثل الحجاز ونجد مناطق البادية المتاخمة للفرات ،

فيرى فريق من باحثي اللغات : ان العربية نشأت على يد القبائل البائدة التي لم يشملها الفناء والهلاك كطسم وجديس ، ويستند اصحاب هذه الفكرة الى التوافق بين النقوش المشورة عليها ، والاصوات التي امتازت بها السامية كالضاد والفين .

ويتجه آخرون الى ان يعرب بن قحطان هو اول متكلم بالعربية ، ويؤيدهم كثيرون محتجين ، بان العرب البائدة ، قد ذهبت ادراج الرياح فليس لها اثر محقق سوى الروي من قصصها في الكتب السماوية ، والنقوش على الآثار المشورة عليها . وهذا الراي منسوب الى اليمانيين الذين يمتقدون انهم اصل العرب . ويتجه جماعة الى ان اسماعيل هو اول متكلم بالعربية مستدلين بما ورد في الاثر من ان اول من نطق لسانه بالعربية اسماعيل .

وجاء في المزهر ، ان اول من تكلم بالعربية ، ونسي لسان ابيه هو اسماعيل - عليه السلام -

ويرى بعض العلماء : ان العربية هي لغة العرب العاربة ، ومنها انتقلت الى القحطانيين فالمدنانيين .

وقال فريق : ان لسان جميع من كان في سفينة نوح هو السريانية ، الا ان واحدا منهم هو جرهم ، فكان لسانه لسان العرب الاول ، فلما خرجوا من السفينة تزوج « ارم بن سام » بعض بنات جرهم ، ومنهم صار اللسان العربي في ولده : عوص ابي عاد ، ومبيل ، وجائر ابي نمود ، وجديس .

تلك آراء العلماء وقد عززت بالادلة التي وضحت لاصحابها ، ومن النظر البين فيها تتجه النفس الى ان العربية اخذت من بقايا القبائل البائدة ، فليس هلاكها مؤثرا في لغتها ، فهناك قبائل بقيت كطسم وجديس ، ولانه من غير المعقول ان يكون « يعرب » اول ناطق بها ، لانه وفد من المسراق متكلم بلغته التي تفاهم بها في وطنه الذي ارتحل عنه ، وهي غير هربية ، فترك « يعرب » للغته التي تعودها منذ نعومة اظفاره ، ليتكلم بلسان جديد هو : العربية منافع للمألوف ، ومخالف للمعروف .

كذلك لا يمكن القول ، بان اسماعيل العبري اول لاهج بها ، بناء على اثر نبوي فالظن في هذا الحديث بناء على حال اسماعيل قوي ، ولكننا نقبله ونفسره بما يساير الواقع ، ويتفق مع الحاصل ، وهو ان اسماعيل اول ناطق بالعربية من المدنانيين

بعد تعلمها من مخالطة الجراهمة - التي هي نرع قحطاني - عند نزوله مع امه بطن مكة سنة الف وسبعمائة قبل الميلاد ، وعلى ذلك لا تنافي بين الاثر والواقع .

والقحطانيون وقد تلقوا لغتهم من بقايا العرب البائدة ، لم يكن لهم لسان موحد في شتى العصور لان العوامل اللغوية فعلت فعلها فتفرعت الى لهجات : اللهجة الميمنية : وهي منسوبة الى الميبيين الذين اسسوا اقدم مملكة في بلاد اليمن ، وقد اتخذوا « قرنا » عاصمة للمكهم في القرن الثامن قبل الميلاد غالبا .

اللهجة السبئية : وتنسب الى السبئيين الذين قامت دولتهم القريبة على انقاض الدولة الميمنية ، وقد اتخذوا « مارب » عاصمة لهم .

اللهجة الحميرية : وهي منسوبة الى الحميريين الذين نازعوا السبئيين الحكم امدا طويلا .

اللهجة القتبانية : وهي منسوبة لقبائل قتبان التي نشأت مملكتها في المنطقة الساحلية شمال « عدن » .

اللهجة الحضرمية : وهي منسوبة الى قبائل (حضرموت) وقد انشأوا مملكة قوية نازعت « سبا » السلطان .

فالقحطانيون تلقوا هذه اللغة ، من بقايا القبائل العربية البائدة ، وقد توسعوا فيها حسب مطالب الحياة ، واخذها المدنانيون عنهم ، لجوارهم لفرع قحطاني وهو « جرهم » .

فالعربية عريقة في القدم والثبت ، لها تاريخ ممتد طويل في الزمن الماضي وان التاريخ الطويل يعطي اللغة فاعلية اكثر ، وتفاعلا اسلم ، وتبلورا وتناسقا مع مقتضيات الزمان ، ومتطلبات الحياة .

ومصادر اللغة العربية الاساسية : يمكن ان نستقيها من القرآن الكريم والشعر والامثال والقصص .

اما القراءان فضلا عن كونه احدث تغييرا جذريا في التفكير العربي في جميع مناحي الحياة ، فقد كان مصدرا عظيما للغة التي افناها بمصطلحات كثيرة ، وبأسلوب جديد ، وكثير من هذه المصطلحات والاساليب يرتبط ارتباطا وثيقا بالدين والعقائد والعبادات والمعاملات .

وكان النبي - عليه الصلاة والسلام - يقدم هذا الأسلوب - المنزل عليه في صورة وحي - كأخبار أو جواب عن أسئلة يثيرها العرب « يسألونك عن الأهلة - يسألونك عن الشهر الحرام - ويسألونك ماذا ينفقون - يتساءلون عن النبا العظيم » إلى آخر تلك الأسئلة .

وفي عهد الرسول لم تثر أسئلة كثيرة حول نصوص القرآن ، فكان على الصحاب ان يأخذوا على انفسهم نقل هذه المسؤولية ، فلم يقدم على ذلك الا قليل منهم كعكرمة ، وابن عباس الذين تصديا للجواب على كثير من الاسئلة التي اثارها المستفسرون .

والتار الخلاف في قراءة القرآن مشكلة ظهور عدة روايات ، تنقلت عن جماعة معينة من القراء ، واحتفظت الآيات بوجه عام بصورتها الحقيقية ، وانما كان الخلاف يتعلق بالحركات ، لا بجوهر اللفظ نفسه ، ومهما يكن من شيء فان القرآن كان مرجعا اساسيا لرواة اللغة الذين اتمدوه كنقطة استقرار واستنتاج ، وقد حفظ عدد من الاستعمالات التي لم تعد اليوم جارية في الأسلوب العربي مثل : « ان هذان لساحران - قال رب ارجعون - والارض فرشناها - فقد صفت قلوبكما » .

وكل هذه الاستعمالات وغيرها كان يستشهد للتدليل على صحة ما يقابله من غير القرآن .

ولم يحظ الحديث بمثل هذه الحظوة ، ومع ذلك فتوجد تراكيب مشهورة وردت قصدا أو ضمنا في احاديث النبي ، حتى قيل انها لم تسمع من غيره من قبل ، ومنها : « مات حتف انفه - الحرب خدمة - لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين » .

واما الشعر : فنصدر بالغ الاهمية للغة ، حتى قيل انه لولا الشعر لضاع نصف اللغة ، وانما ظل الشعر مصدرا للغة لسهولة حفظه وروايته ، ولانه لا يحتمل المكذوب والمدسوس ، مثلما يحتمله النثر ، واذا كان الشعر لم يسلم من التحريف والانتحال ، فان بعض الادياب عمدوا الى جمع كثير منه كتابة في وقت متأخر نسبيا ، كابي تمام « الحماسة » وابي فرج الاصفهاني « الاغانى » والذين تصدوا من جماع اللغة للتأليف في هذا الباب ، عمدوا الى الاستشهاد بالشعر ، كما فعل النحاة ايضا ، وهكذا استشهدوا بالشطر التالي على ان « عرب » تطلق على الذكر والانثى .

يا من يدل عربا على عرب

كما استشهدوا في مخاطبة الواحد بلفظ التنثية بقول سويد بن كراع :

فان تزجراني يابن عفان انزجر

وان تدعاني احم مرضا ممنما

وقس على هذه الامثلة ، وقد كان ابن عباس يقول : اذا قرأتم شيئا من كتاب لم تعرفوه ، فاطلبوه في اشعار العرب ، لان الشعر ديوان العرب .

والشعر : هو الكلام الموزون على روي واحد المقوم على حدو واحد لا يخالف بعضه بعضا في الوزن والروي ، وسموه شعرا ، لانه الفطنة بالفواض من الاسباب ، وسموا الشاعر شاعرا : لانه كان يظن لما لا يظن له غيره ، من معاني الكلام وأوزانه ، وتأليفه واحكامه وتثقيفه ، فكان لا يفوته من هذه الاسباب كلها شيء قال معترة :

هل غادر الشعراء من متردم

ام هل عرفت الدار بعد توهم

يعني ان الشعراء لم يدعوا شيئا ، الا وفظنوا له ، يقال شعرت بالشيء اذا فطنت له ، قال الكسائي في قوله تعالى : « ولكن لا تشعرون » شعرت بالشيء شعرا وشعورا ، وبعضهم يقول مشعورة ، وقال ابو سعيد : هو شعرة فحذفوا الهاء : قال وهو مثل : الدرية والفطنة ، وهو على وزن « فعلة » قال : وقيل شاعر لانه يشعر بالشيء ويفطن له ، قال : ومنه قولهم : « ليت شعري » أي ليتني اشعر به .

وسموا الكلمات المنظومة المؤلف بعضها الى بعض « قافية » وجمعها « قواف » قال النابغة :

قوافي كالسلام اذا استمرت

فليس يرد مذهبها التظني

يمنون بالقوافي : الكلام الذي يقفو بعضه بعضا على مثال واحد ، ثم سموا اجتماع القوافي « قصيدة » قال جرير :

في ليلتين اذا حدوت قصيدة

بلغت عمان وطيه الاجيال

يعني بالقصيدة : الكلمة التي ملئت بالمعاني ، وكثرت فيها الالفاظ المستحسنة يقال ناقة قصيدة أي مثلثة كثيرة اللحم سمينة ، فكانهم شبهوا القصيدة بذلك ، قال الشاعر :

نظمت وصاحبي سرح كزاز

كركن الرهن ذعلبة نصيد

فأي لغات الأمم لها كلفة العرب هذه الأسباب اللطيفة ، والمناقب الشريفة التي خصت بها ، وأي أمة جعلت لغتها هذه الحوزة ، واتخذت لها هذه الدراوين ، واحتاطت لها هذا الاحتياط .

فالعرب تكلموا بالشعر الرصين ، المحكم المعاني ، الموزون بالمعروض ، المقوم بالانحاء ، من غير أن يعرفوا عروضاً أو نحواً ، أيدهم الله بقلبه ، والمهمهم وزنه ، حتى أبرزوه بألفاظ حسنة ، ومعان متقنة ، وقواف موزنة ، ومصاريع مستوية ، فرواه أهل اللب والادب منهم ، وقبلة أهل الشرف والحسب عنهم ، وجعلوا رويهم في ذكر الاحساب والمآثر ، ومدح الملوك والعظماء ، والتبلاء من الناس ، وفي ذكر المثالب والسباب ، وهجاء أهل الضغائن والاحقاد ، وفي ذكر الوقائع والحروب .

ونشر كل شاعر محاسن قبيلته ومفاخرها ، ومساويء أهل الشتان والبغضاء لهم ، واستفتحوا كلامهم بذكر النسيب ، وبسطوه بصفات الديار والقفار والتجع والامطار ، ونعت الخيل والابل والوحش ، وغير ذلك .

فنعيت بالشعر الالفاظ الغريبة والمصاني اللطيفة ، وحفظ الرواة عنهم كثيراً من ذلك الشعر ، ودونوه ورواه السلف للخلف ، واعتنى به الخلف عن السلف .

وأما الامثال : فتعتبر كذلك من المصادر الاصلية للغة العربية ، وللعرب منها الشيء الكثير ، وهي ذات أهمية بالغة من حيث ارتباطها اجتماعياً وادبياً بحياة العرب كما أن كثيراً منها يصلح تطبيقه على غير العرب من الأمم والافراد فتقولهم : « الحرب خدمة - ومعظم النار من مستصفر الشر - ولا يطاع لقصير امر » . وقد اخذت كثير من دول أوروبا عدداً من الامثال العربية .

وأما القصص : فرواه كل مثل قصة ، حفظت كتب الامثال منها وخصوصاً كتاب «مجمع الامثال» للميداني (517 هـ) ، والقصص تمثل بدورها نماذج صادقة من تفكير العرب وآدابهم وأهميتها اللغوية تتمثل فيما شملته من غريب اللفظ ، وجمال الاسلوب ، واحسن مرجع لها هو كتاب « الامالي »

لابي علي القالي ، وكتاب « الالغاسي » لابسي فرج الاصفهاني ، وكتاب « البيان والتبيين » للجاحظ .

وخلصة القول : ان القرآن والشعر والامثال والقصص ، كل منها قد أدى دوراً بارزاً في حفظ اللغة وتقويتها ، الا ان جميع الدراسات اللغوية اثبتت في وضوح ان سبب نشأة اللغة العربية ونموها واتساعها وشمولها وتبلورها وتطورها ، هو : القرآن الكريم قبل غيره ، وذلك ان الالفاظ كثيرة ، يرددها القرءان كانت مثار أسئلة المسلمين منذ عهد الرسول وكان بين هذه الالفاظ ، ما هو غير عربي ، ثم كان المعنى اللغوي يتعين فهمه ، قبل الاقدام على التاويل الشرعي ، فنشأ عن ذلك العناية بتفسير القرآن الكريم .

واختلفت الروايات في قراءة القرءان ، فنشأ عن ذلك علم القراءات التي كانت ذات ارتباط ولبق بالنحو ، واخيراً فان وضع قواعد النحو كان ضرورياً لحفظ آيات القرءان على صورتها الاصلية ، وبقطع النظر عن تمدد القراءات . ولحسن الحظ فقد كان العرب يفتنون الى ضرورة تدوين أكثر ما يمكن من الاشياء التي يخشون على ضياعها بسرعة ، كما فعلوا في تدوين المصحف مثلاً ، فقد بدأوا في ذلك منذ عهد ابي بكر الصديق ، وهذا يدل على ان العرب كان فيهم عدد ممن يحسن الكتابة والقراءة ، بل يمكن ان يفهم من تعليم أسرى مكة لصبيان المدينة اثر معركة بدر الكبرى ، ان الكتابة والقراءة كانتا تنتشران بمكة التي هزنتها قبل المدينة ، ومن ثم لتدوين العلوم المتصلة بالقرءان ، قد سبق تدوين غيرها من العلسوم .

وبالرغم من ان الكتابة كادت تكون مجهولة ، في باقي اجزاء شبه الجزيرة العربية ، فان الالفاظ اللغوية التي حفظتها القواعد تشكل ثروة هائلة . ولقد كانت لغة الشعر كما يقول : « بروكلمان » اشبه ما يكون بنهر جداوله هي اللهجات المحلية للقبائل ، والتي اشتقت من العمين نفسها .

وإذا كان للقرءان الفضل في انتشار اللغة العربية بشكل لم تكن تعرفه لغة اخرى في العالم ، فان الموارد الاخرى التي استقى منها الرواة ودارسوا اللغة الاولون قد ادت بدورها خدمة للعربية لا ينكر .

والى البصريين يرجع الفضل بطبيعة الحال لى تحقيق اللغة، وتمييز صحيحها من فاسدها ، وغريبها من مستعملها ، وان كان الكوفيسوز، قد ساهموا بدورهم فى هذا الميدان الا ان مؤلفاتهم على العموم، لم يتح لها تأثير كبير من حيث الذبوع والانتشار .

وقد ظلت اللغة العربية على متانتها فى عهد الرسول ، وفى ايام الخلفاء الراشدين ، وما سجل من الهفوات واللحن ، على بعض العرب آنذاك لم يكن شيئاً يذكر بالقياس الى ما بلفته العربية من فوضى فيما بعد .

مراجع هذا البحث

- 1 - « تاريخ العرب قبل الاسلام » للدكتور جواد على ج 1 القسم اللغوي - مطبوعات المجمع العلمى العراقى .
- 2 - كتاب « فقه اللغة » للصبحى طبعة المؤيد 1910 م
- 3 - كتاب « غرائب القردان » للنيسابورى .
- 4 - مقدمة ابن خلدون - طبعة كتاب التحرير 1386 هـ القاهرة .
- 5 - كتاب « الخصائص » لابن جنى ج 1 مطبعة الهلال بالفجالة مصر 1913 م .
- 6 - كتاب « لسان العرب » لابن منظور طبع دار الصاوي 1355 هـ مصر .
- 7 - كتاب « المحتسب فى القراءات » لابن جنى طبع المجلس الاعلى للشؤون الاسلامية 1386 هـ القاهرة .
- 8 - كتاب « المتنضب » للمبرد الجزء الاول والثانى طبع المجلس الاعلى للشؤون الاسلامية 1386 هـ القاهرة .
- 9 - كتاب « تحرير التحرير » لابن ابى الاصبح - طبع المجلس الاعلى للشؤون الاسلامية 1383 هـ القاهرة .
- 10 - كتاب « الاغانى » لابي فرج الاصفهاني طبع دار التحرير للطبع والنشر 1384 هـ القاهرة .
- 11 - كتاب « تاريخ الادب الجاهلى » لمعيد الادب العربى الدكتور طه حسين . القاهرة .
- 12 - كتاب « تاريخ ادب العرب » لمصطفى صادق الرافعى .
- 13 - كتاب « الثقافة الاسلامية والحياة المعاصرة - مجموعة بحوث القيت بجامعة برنستون بامريكا سنة 1953 م طبع مؤسسة فرانكلين .
- 14 - كتاب « الاتقان فى علوم القردان » الجزء الاول للسيوطى . طبع الحلبي بمصر 1965 م .
- 15 - كتاب « اللهجات العربية » لابراهيم نجا - مطبعة السعادة بمصر 1965 م .
- 16 - كتاب « الزينة فى الكلمات الاسلامية » للرازي ج 1 الطبعة الثانية - دار الكتاب العربى
- 17 - مجلة « اللسان العربى » العدد الثانى - الرباط - المغرب .
- 18 - كتاب « اشعات مجتمعات » لعباس العقاد - الطبعة الثانية - دار المعارف بمصر .
- 19 - مجلة « الرواد » العدد الثانى من المجلد الرابع - 1968 م ليبيا .
- 20 - مجلة « اللغات » المجلد الاول ، تصدر عن مركز اللغات بتونس 1964 م .
- 21 - مجلة « المعرفة » المجلد الاول تصدر بالملكة العربية السعودية 1379 هـ .